المحاضرة الثانية : فنّ الخطابة قبل الإسلام

من المعلوم أن فن الخطابة قد نالت مكانة عالية قبيل ظهور الإسلام، وترجع أهميته لشدة حاجة العرب إليه، ولمقدرتهم البيانية والبلاغية وحسهم اللغوي، فإذا كان الشعر في الجاهلية له القدح المعلى، لأنه كان يدافع عن حمى القبيلة ويفخر بأمجادها، ويتغنَّى ببطولاتها، فإنه قبيل مجئ الإسلام تخلَّى عن مكانته لصالح الخطابة، التي كانت قبل هذا تعدُّ الفن النثري الأبرز الذي يضارعه، وقد كان للخطابة دواع كثيرة اقتضتها، ولحاجة العرب إليها في حياتهم الاجتماعية والثقافية والأدبية، وهي من الفنون التي لم يأفل نجمها إلى وقتنا هذا، مما سبق نتساءل عن مفهومها ؟ ومكانتها عند العرب؟ ودواعي ظهورها؟ وأنواعها ؟ وخصائصها الفنية؟

تعريف الخطبة: لغة:

- « [خطب] وخطب الرجل خطابة فَهُوَ خطيب بَين الخطابة، وَاسم الْكَلَام: الْخطْبَة » [1]
- « [خطب] الخطب: سبب الأمر، تقول: ما خَطْبُكَ، وخَطبت على المنبر خُطْبَةً بالضم، وخاطبه بالكلام مُخاطَبَةً وخِطاباً، وخَطَبْتُ المرأة خِطْبَةً بالكسر، واختطب أيضاً فيهما، والخطيبُ: الخاطبُ، والخِطِّيبي: الخِطْبَةُ » [2]
- « خطب: الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وَقِيلَ: هُوَ سَبَبُ الأَمْر، يُقَالُ: مَا خَطْبُكَ؟ أَي مَا أَمرُكَ؟ وَتَقُولُ: هَذَا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسِير، والخَطْبُ: الأَمر الَّذِي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن » [3]

ما سبق يتبين أنَّ دلالة الخطبة لغويا تعني مع مفردات الشأن والأمر والخطب، التحدُّث بكلام ما.

اصطلاحا:

عُرِّفت الخطبة بأنها : « فن مخاطبة الجمهور، الذي يعتمد على الإقناع، والاستمالة، أو هي كلام بليغ، يُلقى في جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم في دنياهم وآخرتهم » [4]

وعرَّفها بعضهم بأنها: « فن من فنون الأدب النثري، مختص بكلام يُلقى إلقاءً، أمام جمهور مستمع، ويهدف إلى توضيح أمرٍ أو قضية هما مثار جدل، لإفهام هذا الجمهور، وتوجيههه واستمالته، بإثارة عواطفه، لاتخاذ موقف ما » [5]

وهنا لابد من الإشارة إلى أنَّ الخطابة لا يعدها كثير من الدارسين من أبواب الكتابة بل ومن أبواب النثر، يقول أحمد بدوي في هذا الصدد : « ولن أعد الخطابة نثرا في هذا الكتاب، لأنه وإن شاركت النثر في أنها غير موزونة ولا مقفاة – تختلف عنه اختلافا بينا من ناحية تكوينها – فألوان النثر المختلفة تعتمد على التفكير والروية في إنتاجها، يمحو فيها القلم ما يشاء، ويثقفها صاحبها ما شاء له التثقيف، بينما تعتمد الخطابة أكثر ما تعتمد على البديهة والارتجال، ولذلك تميزت من باقي ألوان النثر » [6]

نشأتها وتطورها :

مما لاشك فيه أن العصر الجاهلي في جانبه العقدي والمعرفي، قد لاقى معارضة شديدة من طرف المنظومة الدينية الجديدة ممثلة في الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه في الجانب الأدبي قد ورث العرب منه شعرا ونثرا، ضاع منهما الشئ الكثير خاصة النثر، ولكن فيما يخص التقاليد الفنية وأساليب اللغة العربية، فقد ظلَّا يُتناقلان جيلا بعد جيل، بحيث استوعبه العرب في العصور الإسلامية المختلفة، فأضافوا فيه وطوّعوه للتصور والذوق والرؤية الإسلامية، وللمستجدات السياسية والاجتماعية والفكرية والحضارية، التي عاشها المسلمون في عهد النبوة

---

[1] - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللغة، ج01، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان، ط01، 1987، ص 291. مادة [خَطَبَ].

[2] - أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ج01، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط04، 1987،، ص121. مادة [خَطَبَ].

[3] - ابن منظور، لسان العرب، ج01، مصدر سبق ذكره، ص360. مادة [خَطَبَ].

[4] - محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، مرجع سبق ذكره، ص 157، 158.

[5] - أنطوال القوال، فن الخطابة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط01، 1996، ص11.

[6]- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط01، 1996، ص 573.

وما حدث فيها من حروب كلامية بين المسلمين والمشركين، وفي عهد الخلفاء الراشدين، وفي الفتنة بين علي ومعاوية، وما تبع ذلك من قيام الدولة الأموية وتشكل الأحزاب السياسية، وانتهاء بالدولة العباسية.

فالخطابة على سبيل المثال قد سايرت الدعوة الإسلامية، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة لتبليغ دين ربِّه « طوال مقامه بمكة، قبل الهجرة، حيث ظل ثلاثة عشر عاما يعرض على قومه من قريش، وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم، وهو في أثناء ذلك يخطب في الناس داعيا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة » [1] ، واستمرَّ نهج الرسول صلى الله عليه وسلم، في الدعوة إلى ربه، بعدما هاجر إلى المدينة، بل اتسع نطاقها، بحيث أصبحت الخطابة وسيلة للتشريع وللسياسة الشرعية، وتنظيم أحوال الناس وحثِّهم على الجهاد في سبيل الله، وأصبحت فرضا واجبا في صلوات الجمعة والأعياد والحج، ولكن الملاحظ أن الخطابة الإسلامية جاءت لتعدِّل مسار الخطابة الجاهلية، التي لا تتفق مع روح الإسلام وتعاليمه، كخطب المنافرات، وما فيها من فخر بالأحساب والأنساب وتكاثر بالآباء والأجداد، فطوى الإسلام بذلك صفحة الماضي، بما فيها من تشاحن وتنافر وأحقاد وضغائن، وقد بقي الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم في خلفائه من بعده، وازدهرت أكثر من ظهور الفتن، التي حدثت بين المسلمين، خاصة الخلاف بين علي ومعاوية، واستمرت بعد ذلك إلى العصرين الأموي والعباسي، وظهرت أنواع جديدة من الخطابة كالسياسية والكلامية والوعظية (القصصية).

مكانتها :

المتأمل في الحياة الأدبية في العصر الجاهلي يدرك أنَّ الخطابة لم يصلها شأوها أي فني قولي آخر – عدا الشعر – في مراحل تطوره وازدهاره، ثم تقهقر مفسحا المجال للخطابة كي تحتل صدراة المشهد الأدبي في ذلك العصر، يقول أبو عمرو بن العلاء مقررا هذه الفكرة : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم. فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » [2]، ويؤكد الجاحظ الرأي السابق لأبي عمرو بن العلاء بقوله: « وكان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب، وهم إليه أحوج، لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر » [3]

من القولين السابقين نرى أن الخطابة قد فاقت الشعر مكانة وأهمية عند العرب، لما حاد الأخير عن وظيفته المنوطة به، فاتُخذ مكسبةً، وارتحل الشعراء به إلى السوقة من الناس وتناولوا أعراض الناس.

دواعي الخطبة :

لاشك أن للخطبة أسباب اقتضتها ودواعٍ حرَّكت العرب للإجادة فيها، نذكر منها:

- تأصُّل ملكة البيان فيهم، وقدرتهم على التصرُّف في أنواع الكلام، جعلهم يتنافسون في ميدان الخطابة تنافسهم في مضمار الشعر.
- الفخر بالأحساب والأنساب، والذود عن شرف القبيلة.
- التحريض على القتال، وتحريك الهمم وتهييج المشاعر للقيام بواجب العصبية القبلية.
- نصرة الضعيف، وإغاثة الملهوف، ورد الحقوق، وحفظ الجوار.
- إصلاح ذات البين بين المتخاصمين.
- السفارة بين القبائل وأحيائها، وبين الملوك وعمَّالهم.
- انتشار الأسواق والنوادي التي تستقطب الخطباء كما الشعراء، خاصة سوق عكاظ.
- شيوع الأمية بينهم، وتباعدهم في الديار، جعل من الخطبة بديلا شفويا يقوم مقام الكتابة والرسائل.
- حرية القول والشجاعة في إبداء الرأي.

---

[1] - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الإسلامي)، مرجع سبق ذكره، ص 106.
[2] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 241.
[3] - المصدر نفسه، ج04، ص 83.

حقوق تأليف هذه المحاضرات محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زيناي

وقد ذكر الجاحظ مجموعة من المواصفات التي يتأكد وجودها عند الخطباء، كلبس العمائم، والاتكاء على الأرض بالعصيّ والقسيّ، وحملهم المخاصر على كل حال*، وامتطائهم الرواحل حال الخطب، ورفع اليد ووضعها، مع جهارة الصوت، وحضور البديهة، والبعد عن التنحنح والسعال والعبث باللحية، مما يدل على عيٍّ في الخطيب. [1]

من **أشهر خطباء العرب**: قُسُّ بن ساعدة الأيادي، عمرو بن كلثوم التغلبي، أكثم بن صيفي التميمي، الحارث بن عباد البكري، وعامر بن الضَّرب العدواني، قيس بن زهير العبسي، عمرو بن معد يكرب الزُّبيدي، خويلد بن عمرو الغطفاني، الحارث بن كعب المذحجي، عمرو بن عمار الطائي، وزهير بن جناب الكلبي...

أنواع الخطب:

المتأمل لبنية الخطب في العصر الجاهلي يرى أنها جاءت موزَّعة على حسب دواع قَبَلِيةٍ اقتضتها، ويمكن إرجاعها إلى الأنواع الآتية:

1/ **خطب المنافرة** [2] **:** المنافرة كما المفاخرة، هي« أَن يَفْتخر الرَّجُلان كُلّ وَاحِد مِنْهُمَا على صَاحبه، ثمَّ يحكِّمان بَينهمَا رجلا » [3] وهي في العادة تكون في حشد من الناس، يتباهى فيها الطرفان بمكارم الأخلاق، وعلو المنزلة، وشرف النسب، وقد روتْ لنا كتب الأدب كثيرا من المنافرات، منها : منافرة عَلقمة بن عُلاثة لعَامر بن الطُّفَيل وتحاكمهما إِلَى هَرِم بن قُطْبَة الفَزَاريّ، وشاهد هذا الخطبة، ما رواه الْمَدَائِنِي « أَن قُرَيْشًا وثقيفاً اخْتَصَمُوا فِي أَرض، فَجعلت ثَقِيف أمرهَا إِلَى كدام أَو كلدة، وَقَامَ لقريش عبد الْمطلب، فَقَالَ الثَّقَفِيّ لعبد الْمطلب: أَنافرك فأيُّنا نَفَرَ فَالْمَال لأَصْحَابه، وتراضوا بسطيح، فَخَرجُوا وخبأوا لَهُ عين جَرَادَة، فِي خرزة مزادة، فَسَارُوا سبعا، فَلَمَّا أَتَوْهُ قَالَ: لقد سِرْتُمْ سيراً بلغ زعزعة، وَوضع حَتَّى تدليتم النَّقْع فِي آخر السَّبع، قَالُوا: صدقت. قَالَ: إِن شِئْتُم أَخْبَرتكُم قَالُوا: قد شِئْنَا، قَالَ: طَار فسطع، فصاح فضبح، وامتلأ فنضح، قَالُوا: زِهِ، زِهِ، زِهِ. فَقَالَ الثَّقَفِيّ: احكم لأشدنا ضراباً، وأكثرنا أعتابا، وأفضلنا وطابا. فَقَالَ عبد الْمطلب: أحكم لأكرمنا فعالاً، وأكثرنا ضيفاناً، وأعظمنا جفاناً، قَالَ سطيح: وَالسَّمَاء وَالْأَرْض، وَمَا بَينهمَا من جدد ودحض، لعبد الْمطلب أولى بِكُل خفض وَرفع، وضر ونفع » [4] الملاحظ في الشاهد السابق أن المتنافرين ارتضيا أحدا يحكم بينهما، وحكمه في الغالب يكون من جنس قولهما، وهي الخطبة، ويشترط فيه أن يكون حكيما شريفا، يؤتى إليه في المشورات والمنازعات، ويمكن أن يكون كاهنا.

2/ **خطب الحرب :** المتأمل لحالة العرب، يدرك أنها قائمة على الصراع والتنافس والتقاتل الدائم على الحمى والمراعي والسيادة والشرف، وفي بعض الأحيان على أمور تافهة، لا تستحق إراقة الدماء فما بالك بحروب تشتعل نارها سنوات طوال، تزهق فيه الأرواح، وتقطع فيه الأرحام كما حدث في حرب البسوس وداحس والغبراء، وفي الحرب يغلب صوتُ الحماسة، صوتَ الحكمة، ويطغى الغضبُ على الحلم، فيتبارى الشعراء والخطباء في إيراء نيران الفتنة بين القبائل، وقد كثرت خطب الحروب في العصر الجاهلي، بما يقطع أن العرب ما كانت لتقبل الضيم ولا تحني رقابها وتسلم قيادها لغيرها، وفيما يأتي خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني، يحرِّض قومه بني وائل، ويدعوهم للقتال يوم ذي قار : « يا معشر بكرٍ، هالك معذور، خير من ناجٍ فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدبارِه، الطعن فِي ثغر النحور، أكرم منه فِي الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا بدٌّ » [5] .

3/ **خطب إصلاح ذات البين :**

عندما تدبُّ الحماسة والفخر في قلوب العرب، يدفعهم هذا إلى المنافرة، والمنافرة بريد المشاجرة، ثم يمكن أن تتطور الأمور إلى الحروب أحيانا، فيظهر حينئذ صوت العقل والإصلاح حكما، فـ « فيقمع مظاهر العنف، ويطفئ جذوة العجرفية، ويبين للمتنافرين، أن الصلح أحجى، وينهض بالأمر أصحاب الحكمة الرزان، فينصحون للفريقين

---

*- المطالع لما كتبه الجاحظ عن الخطابة والخطباء أنه أطال النَّفس ووقف طويلا عند عادة العرب في حمل العصي والمخاصر، فيقول : « إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم. حتى أنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم، ألفا لها، وتوقعا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها » أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 17.

[1] - ينظر : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 06- 07.

[2] - أصل المنافرة قولهم : أيُّنا أعزُّ نفرا.

[3] - أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، ج15، مرجع سبق ذكره، ص 151.

[4] - أبو سعد منصور بن الحسين الرازي، نثر الدر في المحاضرات، ج06، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2004، ص216.

[5] - المصدر نفسه، ج01، ص 169.

بالموادعة، ويزجرونهما عن المهاترة، ويدعونهما إلى جمع الشمل، ورتق الخرق قبل استفحال العداوة » [1] ، من تلك الخطب ما قاله مرثد الخير بن ينكف مصلحا بين ميثم بن مثوب بن ذي رعين وبين سبيع بن الحارث، وقد تنازعا الشرف واختلفا، حتى خيف أن يقع بين حييهما شرٌّ، فبعث إليهما مرثد، وقال لهما: « إن التخبط وامتطاء الهجاج، واستحقاب اللجاج، سيقفكما عَلَى شفا هوةٍ، فِي توردها بوار الأصيلة، وانقطاع الوسيلة، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السهمة ...، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب من عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إِلَى التقاطع، ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صيور أمورهم، فتلافوا القرحة قبل: تفاقم الثأى، واستفحال الداء، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء تقضبت عرى الإبقاء وشمل البلاء » [2]

4/ **خطب الوعظ:** لاشك أن العرب في الجاهلية كان الغالب عليهم، هو الاشتغال بمتطلبات الحياة اليومية من رعيٍ وبحث عن مضارب العشب والماء في السلم، والغزو والدفاع عن الحمى في الحرب، إلا أن منهم من أعمل عقله، فأرسل بصره متأملا في الكون والحياة، مستخبرا عن أسرار الخلق وأحوال الناس، وربما وصل بتفكيره، أو بما قرأه من كتب الأولين، إلى إدراك حقائق غائبة، فيدعوا قومه إليها واعظا وناصحا لهم، بجمل قصيرة مفككة، يدور أغلبها حول قضايا الحياة والموت والبعث والمعاناة من الضياع والتيه، وقد اشتهر من خطباء الوعظ المأمون الحارثي؛ الذي خطب في قومه يوما، بعدما نظر في السماء والنجوم طويلا، ثم قال: « أرعوني أسماعكم، وأصغوا إِلَى قلوبهم، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد، طمح بالأهواء الأشر، وران عَلَى قلوب الكدر، وطخطخ الجهل النظر، إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر، أرضٌ موضوعة، وسماءٌ مرفوعة، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري فتعزب، وقمرٌ تطلعه النحور، وتمحقه أدبار الشهور، ... وراحلون لا يؤوبون، وموقوفون لا يفرطون، ومطرٌ يرسل بقدر، فيحيي البشر، ويورق الشجر، ويطلع الثمر، وينبت الزهر، وماء يتفجر من الصخر الأير، فيصدع المدر عَنْ أفنان الخضر، فيحيي الأنام، ويشبع السوام، وينمي الأنعام، إن فِي ذلك لأوضح الدلائل عَلَى المدبر المقدر، البارئ المصور.يأيتها العقول النافرة، والقلوب النائرة، أنّى تؤفكون، وعن أي سبيل تعمهون، وفي أي حيرة تهيمون، وإلى أي غاية توفضون، لو كشفت الأغطية عَنِ القلوب، وتجلت الغشاوة عَنِ العيون، لصرح الشك عَنِ اليقين، وأفاق من نشوة الجهالة، من استولت عليه الضلالة » [3]

وخطبةُ قُسِّ بن ساعدة الإيادي ♣ الشهيرة بسوق عكاظ، أشهر من هذه ، فعن« ابن عباس قال قدِم وفد بكر بن وائل على رسول الله، صلى الله عليه وسلّم، فلما فرغوا من شأنهم، قال لهم: هل فيكم أحدٌ من إياد، قالوا: نعم، قال: أفيكم أحدٌ يعرف قُسَّ بن ساعدة الإيادي، قالوا: نعم، كلُّنا نعرفه، قال: فما فعل، قالوا: هلك، قال: ما أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام يخطب الناسَ على جمل له أحمر، وهو يقول ♦: يا أيُّها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، منْ عاش مات، ومَنْ مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آت.

أما بعد فإن في السماء لخبراً وإنَّ في الأرض لعبراً، سقفٌ مرفوع، ونجومٌ تمور، وبحارٌ لا تغور، وتجارة لن تبور، أقسَمَ قسّ بالله وما أثِمَ لئنْ كان بعض الأمر رِضىً لك إن في بعضه لسخطاً وما هذا لعباً، وإن من وراء هذا لعجباً، أقسَمَ قسّ بالله إن لله ديناً هو أرضى له من دينٍ نحن عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرَضوا فأقاموا، أم تُركوا فناموا، قال: وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلّم: لقد سمعته ينشد أبياتاً لا أحفظها، فقال بعضهم: أنا أحفظها يا رسول الله، قال: قُل، فقال:

فـــــــي الـــــــذاهبين الأولـــــــين مـــــــن القـــــــرون لنـــــــا بصـــــــائرْ

---

[1] - غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي(قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، مرجع سبق ذكره، ص 546.

[2] - أبو علي القالي، الأمالي، ج01، دار الكتب المصرية، بيروت، لبنان، ط02، 1926، ص92.

[3] - المصدر نفسه، ج01، ص 273.

♣- لم يحفظ لنا القدماء من كلام قسٍّ إلا خطبته وبعض الأقوال، من ذلك ما أورده أبو علي القالي أنَّ « قسّا بن ساعدة يفد عَلَى قيصر ويزوره فقَالَ له قيصر يوماً: ما أفضل العقل؟ قَالَ: معرفة المرء نفسه، قَالَ: فما أفضل العلم؟ قَالَ: وقوف المرء عند علمه، قَالَ: فما أفضل المروءة؟ قَالَ: استبقاء الرجل ماء وجهه، قَالَ: فما أفضل المال؟ قَالَ: ما قضي به الحقوق » أبو علي القالي، الأمالي، ج02، مصدر سبق ذكره، ص 37.

♦- يقول الجاحظ معلقا على شرف هذه الخطبة : « ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب، لأن رسول الله صلّى الله عليه وآله هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث. ولذلك كان خطيب العرب قاطبة. » أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص52.

حقوق تأليف هذه المحاضرات محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زيناي

لمـــــا رأيـــــتُ مـــــوارداً للمـــــوتِ ... لـــــيس لهـــــا مصـــــادرْ

ورأيـــــت قـــــومي نحوهـــــا ... يمشـــــي الأصـــــاغر والأكـــــابرْ

لا يرجـــــــع الماضـــــــي ولا ... يبقـــــى مـــــن البـــــاقين غـــــابرْ

أيقنـــــــتُ أنـــــــي لا محـــــــا ... لـــــة حيـــــثُ صـــــارَ القـــــومُ صـــــائرْ» [1]

5/ **خطب الزواج والإملاك :** هذا النوع من الخطب، الذي ظهر في الجاهلية، يدلُّ على ذوق حضاري رفيع كان يتمتع به العرب، وشكل من أشكال إعلان الزواج الحقيقي الخالي من أدران الأنكحة الفاسدة المنتشرة آنذاك مثل نكاح الاستبضاع وذوات الرايات، وصورته أن يأتي خطيبٌ إلى أهل المخطوبة، فيتكلم عن مناقب الخاطب، حتى يظفر بالقبول منها ومن أهلها، ربما كان الخطيب هو عين الخاطب، وينقل الجاحظ صيغة هذا الزواج في الجاهلية بقوله : « وكانت خطبة قريش في الجاهلية- يعني خطبة النساء-: « باسمك اللهم، ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف. باسمك اللهم، لك ما سألت ولنا ما أعطيت » [2]

ومن أشهر الخطب المشهورة خُطْبة أبي طالب في خِطْبَةِ أم المؤمنين خديجة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم، والتي قال فيها : « الْحَمد لله الَّذِي جعلنَا من ذُرِّيَّة إِبْرَاهِيم، وَزرع إِسْمَاعِيل، وَجعل لنا بَلَدا حَرَامًا، وبيتاً محجوجاً، وَجَعَلَنَا الْحُكَّام على النَّاس، ثمَّ إِن مُحَمَّد بن عبد الله ابْن أخي من لَا يوازن بِهِ فَتى من قُرَيْش إِلَّا رجح بِهِ برا وفضلاً، وكرما وعقلاً، ومجداً ونيلاً، وَإِن كَانَ فِي المَال قلّ، فَإِنَّمَا المَال ظلّ زائلٌ، وعاريةٌ مسترجعةٌ، وَله فِي خَدِيجَة بنت خويلدٍ رغبةٌ، وَلها فِيهِ مثل ذَلِك. وَمَا أَحْبَبْتُم من الصَدَاق فعليَّ » [3] وفي المقابل يتكلم خطيب أهل المخطوبة أو قبيلتها، ذاكرا هو أيضا فضائل المخطوبة وشرفها، معلنا قبولهم، أو رفضهم بلباقة وحسن خلقٍ، من مثل ما ردَّ به عامر بن الظرب العدواني على خاطب ابنته (عمرة)، صعصعة بن معاوية : « يا صعصعة إنك جئْتَ تشتري مني كَبِدِي وأرْحَمَ ولدي عندي منَعْتُك أو بعتك، النكاحُ خيرٌ من الأيْمَة، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح يعد أبا، وقد أنكحتك خَشْيَةَ أن لا أجد مثلك، ثم أقبل على قومه فقال: يا معشرَ عَدْوَان أخرجت من بين أظهركم كريمَتكم على غير رَغْبة عنكم، ولكن مَنْ خُطَّ له شيء جاءه، رب زارع لنفسه حاصد سواه » [4].

وقد استمر هذا التقليد الراقي عند العرب بعد الإسلام، وقد جمع ابن عبد ربه الأندلسي طائفة من خطب النكاح، من ذلك ما نقله عن عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان الذي خطب إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته، فأقعده على فخذه، وكان حدثا، وقال : « أقرب قريب، خطب أحبَّ حبيب، لا أستطيع له ردًّا، ولا أجد من إسعافه بدًّا؛ وقد زوَّجتُكَهَا وأنت أعز عليَّ منها، وهي ألصق بقلبي منك؛ فأكرمها يعذب على لساني ذكرك، ولا تهنها فيصغر عندي قدرك؛ وقد قرَّبتك مع قربك. فلا تبعد قلبي من قلبك » [5]

6/ **خطب التعزية والتهنئة :** الحياة بما فيها من أحوال، يمكن أن تحزن بالنكبات والمصائب، ويمكن أن تفرح بالمسرَّات والعطايا، ولهذا كان الجاهليون في معاملاتهم اليومية مع غيرهم، يعزون بما يحزن، ويهنؤون بما يفرح، فكثرت لذلك خطبهم وأقوالهم في كلا الحالتين، فكانوا إذا عزوا أحدهم هوّنوا من شأن الدنيا واستصغروها في عين المعزَّى، وذكروا ووعظوا الحاضرين وحثُّوا على الالتزام بالفضائل، ومما يؤثر في هذا الصدد، ما عزَّى به أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك الحيرة، حين قضى أخوه، فقال: « أيها الملك، إن أهل هذه الدار سفر لا يحلون عقد الرّحال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك؛ واعلم أنّ الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم: غنيمة وصديق، أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته، وغد: لا تدري من أهله، وسيأتيك إن

---

[1] - أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج04، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1404هـ، ص 215.

[2] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص 408.

[3] - أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب، ج04، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي القاهرة، مصر، ط03، 1997، ص04.

[4] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج02، مصدر سبق ذكره، ص77.

[5] - أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج04، مصدر سبق ذكره، ص 233.

وجدك! فما أحسن الشكر للمنعم، والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟ واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخير من الخير معطيه، وشر من الشر فاعله » [1] وفي مقابل التعزية كانت التهنئة إظهار للفرح والسرور، فيذكرون المهنَّأ بفضل الله عليه، دعوة لشكر نعمه وعدم الغرور والبطر بما أُعطي، لأن النعم تُقيَّد بالشكر، وشاهد هذه الخطبة، ما هنَّأ به عبد المطلب بن هاشم سيف بن ذي يزن باسترداد ملكه من الحبشة، فقال: « إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلًّا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت - أبيتَ اللَّعن- رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة، لا وفد المرزئة» [2]

07/ خطب المحافل والوفود : وهي الخطب التي تقال في الأسواق والنوادي والمحافل، والوفادة والقدوم على الأمراء والملوك، وهي في العادة تتضمن فخر الخطيب بقبيلته وعشيرته، وذكر محامدها وفضائلها، وقد كثر ذلك عند القبائل التي لها شهرة ومجد تليد كإياد وتميم، وقد كثرت وفادة الخطباء من القبائل المختلفة على رسول صلى الله عليه ولسم، ومن هؤلاء نجد : عمرو بن الأهتم، عمرو بن سنان التميمي، الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناداه من وراء الحجرات، وأيضا عطارد بن حاجب بن زرارة ...

خصائص الخطابة الجاهلية :

إن الملاحظ للبنية الشكلية لجميع الخطب التي مرّت بنا، يدرك أنّها تشترك في طائفة من الخصائص والسمات، التي تميز الخطابة الجاهلية عن غيرها من الخطب، التي جاءت بعدها، ويمكن إجمالها في ما يأتي:

1/ **القصر:** حيث إننا إذا قسنا، ما وصلنا من خطب جاهلية، مع خطب لاحقة (صدر الإسلام والأموي مثلا)، فإننا سنجد الفرق واضحا بينهما في قصر وطول الخطبة، وهذا دليل على خصوصية الخطبة الجاهلية، وبُعْدَ ما وصلنا عن الانتحال * ، حيث « أن الحفظة نقلوا ما بقي في الذهن، ولم يتزيدوا، ولو أرادوا الانتحال لأطالوا » [3]، وقد كانوا يميلون إلى الاختصار إذا أدرك الخطيب مقصده ووصل إلى برسالته إلى جمهور المتلقين، يقول هاشم صالح مناع ملخصا هذه السمة للخطابة الجاهلية : « لم نعرف أنه روي عن الجاهليين الخطب الطوال، وأغلب ما عندهم الخطب القصار، لقلة تعدد الأغراض فيها، وعدم وجود الأسس والقواعد التي تقوم عليها الخطبة، كما أنهم اعتمدوا الإيجاز؛ لأنه أوقع في النفس، وأبلغ في التأثير، وأعمق في الرواية والحفظ، بينما طول الكلام ينسي بعضه بعضا » [4]

2 / **غياب المنهج :** لا توجد في الخطب الجاهلية منهجية واضحة يسير عليها الخطباء، بل كانت تأتي متنوعة في صياغتها، فمن الخطباء من كان يهجم على غرضه المقصود دون التقديم بتمهيد، ولا تلخيص رأيه بخاتمة، ومنهم من تأتي خطبه على شكل أمثال وحكم متوالية، ومنهم من يقدم بين يدي خطبته بالعبارة المألوفة (أمَّا بعد) وهكذا...

3/ **بساطة الأفكار:** حيث يظهر فيها، أنها تحتوي على أفكار واضحة، تفتقر إلى الفكر العميق، فهي في أغلبها تسجيل لتجارب سابقة عاشها الخطيب وملاحظات اكتسبها من خلال تأمله لأحوال الناس، أو مشاهدات مرآوية للبيئة، التي يعيش فيها.

4/ **مخاطبة العقل تارة والعاطفة تارة أخرى:** ففي الأولى: كان يعمد إلى التفصيل والتعليل، وسرد الحجج والبراهين، وإبراز الشواهد والأدلة، وفي الثانية : كان الخطيب يحرك المشاعر، ويهيج الوجدان؛ باعتماد السجع الموسيقي، وتطعيم خطبته بالتشبيه والاستعارة، التي لها وقع شديدٌ وتأثيرٌ على نفس المستمع.

5/ **الاستشهاد بالشعر:** لأهمية الشعر في حياة العرب، كان له حضور عندهم، فقد كانوا يضمنونه بين ثنايه خطبهم،

---

[1] - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج03، مصدر سبق ذكره، ص 260.

[2] - أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ج01، المكتبة العلمية ، بيروت، لبنان، ط01، 1923، ص 77.

*- لا يجب أن يفهم من كلامنا هذا غياب الانتحال مطلقا عن الخطابة الجاهلية؛ إذ الشواهد تثبت عكس هذا، ومنها تعليق الجاحظ على خبر رواه لثابت بن قيس بن شماس قوله : « وأخذت هذا الحديث من رجل يضع الأخبار فأنا أتهمه » أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج01، مصدر سبق ذكره، ص360.

[3] - غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، مرجع سبق ذكره، ص548.

[4] - هاشم صالح مناع، النثر في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1993، ص39.

أو يختمونها به، يقول هاشم صالح مناع في هذا الصدد: « لقد أثبتت هذه الظاهرة المقدرة الفنية للخطباء، وأظهرت مرهبتهم الفذة، ونمَّت إحساسهم العميق بتأثير النظم، أكثر من النثر؛ لأن الخطيب يجد في نفسه عجزا تاما عن إيصال فكرته بالنثر، لذلك يلجأ إلى الصياغة الشعرية؛ التي تكون أكثر تعبيرا؛ لأنها هي اللغة الفنية القادرة على توصيل إحساس الشاعر حينذاك، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلا شك أن هذه القضية تعطي السامع فرصة الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر » [1]

أما إذا تأملنا الخطابة الجاهلية - من حيث ألفاظها - فإننا سوف نرى استعمالها لمفردات ساذجة بدوية، متداولة في البيئات العربية المختلفة، فهي في كثير من الأحيان سهلة رقيقة، وفي أحيان أخرى مفردات وحشية غريبة، فقد كانت مفرداتهم تأتي من غير تكلفٍ على مقتضى البديهة والسليقة التي فُطروا عليها، فلا تكلف ولا غلو فيها، فـ« ليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني إرسالا ، وتنثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيّده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلّف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب » [2] كما يقول الجاحظ ، ومع هذا تكثر عندهم المحسنات البديعية؛ من سجع وازدواج وتوازن.

ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية في خطبهم، اللهم إلا الخطباء المتاخمة قبائلهم للأجناس غير العربية كالفرس وغيرهم من الأمم الأخرى.

أما فيما يخص البنية التركيبية؛ فقد ظهر ولوعهم بالجمل القصيرة والمسجوعة المتوالية، والتي تعدُّ كل واحدة منها فكرة مستقلة عن الأخرى، وإن كانت كلها تتظافر، كي ترسم ملامح رؤية كلية يريد الخطيب إيصالها، ونلاحظ أيضا في الخطب الجاهلية ضعف الربط وعدم التماسك بين الجمل؛ ولعل ذلك راجع إلى الارتجال الذي تتسم به حياتهم، وإلى كثرة الحكم والأمثال التي تشيع في خطبهم، والتي لا يمكن الربط بينها، فإننا لو قدمنا بعضها وأخرنا البعض لم يختل المعنى ولا نظام الخطبة، من ذلك خطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى، التي يقول فيها : « إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمّها نفعا، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشرّ لجاجة [3]، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا المحالة، أفضل الأولاد البررة. وخير الأعوان من لم يراء بالنصيحة، أحقّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ، حسبك من شرّ سماعة، الصمت حكم وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدّد نفر، ومن تراخى تألف » [4]

أما الصور البيانية فقد كانت قليلة، بين ثنايا الخطب الجاهلية، بحيث يكثر فيها التشبيه، وتقل وتندر الاستعارات والكنايات والتورية، وقد استعاض عليها بالتنويع في الأساليب الإنشائية المختلفة، فنرى الخطباء يزاوجون بين الأمر والنهي والاستفهام والنداء والتعجب والتفجع وغيرها، حتى لا يكون رتيبًا، وليمثل الانفعالات اللازمة للخطابة، التي تمتلئ بها نفس الخطيب، هذا وقد أجمع أبو حيان التوحيدي ما يجب أن يكون في الخطابة في قوله : « وأما بلاغة الخطابة فأن يكون اللّفظ قريبا، والإشارة فيها غالبة، والسّجع عليها مستوليا، والوهم في أضعافها سابحا، وتكون فقرها قصارا، ويكون ركابها شوارد إبل» [5]

---

[1] - المرجع السابق، ص185.
[2] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج03، مصدر سبق ذكره، ص28 – 29.
[3] - اللجاجة: التمادي في الخصومة والنزاع والنقاش.
[4] - ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج01 ، مصدر سبق ذكره، ص 280، 281.
[5] - الإمتاع والؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط01، 1424هـ ، ص 254.